والمسلمين لا يقول غير ما كان يقوله وهو يمدح في الجاهلية سيداً من السادات أو يفخر بقومه وقبيلته ، لا يحيد عن الطريقة المألوفة في شيء من ذكر الشجاعة والفتوة والنجدة والكرم وغير ذلك مما كان يصف به الشعراءُ الجاهليون . وهي في الواقع مجموع الصفات التي كانت تمثل المروءة عند العرب والتي حافظ الاسلام عليها واحترمها ، وإن حوّلها عن هدفها التفاخري كما سبق أن رأينا في مقدمة هذا الكتاب عن الدعـــوة الاسلامية .

وهو كذلك حين يهجو المشركين ، يعمد الى المثالب والوقائع والأيام وإلى بعـــض العيوب الخلقية التي كانت تستنكرها المروءة العربية . ولعلنا نذكر ما سبق أن قلناه من قبلُ نقـــلاً عن الخبر الوارد في الأغاني من أن ابن ثابت وابن مالك كانا بخلاف ابن رواحة يلجآن الى هذا الجانب في هجوهم ومناقضاتهم ، بخلاف ثالثهم فقد كان يركز على رميهم بالكفر .

وربما كان حسان في الرثاء أكثر تأثراً بعواطف الاسلام ومعانيه ، وخاصة فيما يتعلق بالاستشهاد .

لذلك فلن نتعرض لتلك المعاني القديمة التي تملأ شعره ، فهي لا تحتاج الى كثير من البحث حتى تظهر ، وسنفصل القول فيها حين نحلل قصائد الشاعر فـــيما بعد ، وإنما نشير هنا الى أنه لولا أبيـــات معدودة في قصائده يذكر فيهـــا الرسول أو أسماء أصحابه أو الحروب والغزوات أو بعض الكلمات الاسلامية أو آيات قرآنية ، لما استطاع أحد أن يميز بين شعره في الجاهلية وشعره في الاسلام . ومن خير شعره الذي يبدو فيه الأثر الاسلامي قوله من آخر قصيدة له في أُحد (طويل) :

فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم
قتيلٌ ثوى لله وهـــو مطيع

فإن جنان الخلد منزلة له
وأمرُ الذي يقضي الأمور سريع

وقتلاكم في النـــار أفضل رزقهم
حميم معاً في جوفها وضريع (15)

وربما كانت قصيدته في رثاء الرسول أكـــثر قصائده تأثراً بالمعاني الاسلامية ، وهي التي أولها (كامل) :

ما بال عينك لا تنـــام كأنما
كحلت مآقيها بكُحل الأرْمَد

وبالإضافة الى ذلك فإننا لا ننسى أن نقول ان شعر حسان يعتبر مصدراً معتمداً من مصادر تاريخ الاسلام في هذه الفترة المزدحمة بكثير من الأحداث الضخام .

هـ — ونحن بعد هـذا لا نملك إلا أن نقر حقيقة لا مجال لإنكارها في شعر حسان ، وهي هذا البعد الغني الشاسع بين قصائده في الجاهلية وقصائده في الاسلام .

فإذا كنا نصف شعره في الجاهلية بالسلاسة والقوة والصدق والمتانة ، فإننا لن نلبث أن نلاحظ ضعف كل هذه المظاهر في أسلوب شعره في الاسلام .

---

(15) الضريع : طعام أهل النار .

ولعلنا نستطيع أن نعلل لذلك بجملة علل :

1 – ما لاحظنا في كثير من شعره من تشبث بالطريقة الجاهلية في مدح الرسول والمسلمين وهجاء المشركين والرد على الأعداء ، وما لاحظنا كذلك من ضعف التأثير الاسلامي في شعره – يجعلنا نشك في صحة ما نسب إليه من مقطوعات تبدو فيها روح الاسلام قوية بمثاليتها الخلقية ومبادئها العقدية ، ولعلها من وضع الرواة الذين أرادوا أن يجعلوا من حسان شاعر الاسلام بحق وبكامل المعنى . ولسنا نشك في أن شعر حسان تعرض لكثير من الوضع .

وقد بحث الدكتور سيد حنفي هذا الموضوع في الرسالة التي كتبها عن حسان حيث ذكر أن الأمويين والزبيريين والعباسيين استغلوا مكانة الشاعر فوضعوا شعراً من عند شعرائهم نسبوه إليه .

فمن الشعر الذي يعزوه للأمويين تلك القصيدة التي أولها :

أبلغ معاوية بن حرب مألكاً(16)
ولكل أمر يستراد قرار

ومن الشعر الذي يعزوه لوضع الزبيريين قصيدة في مدح الزبير أولها :

أقام على عهد النبي وهَدْيِه
حواريُّه والقول بالفعل يُعْدَل

إشارة الى الحديث « ان لكل نبي حوارياً وحواريّي الزبير » .

ومن الشعر الذي ينسبه للعباسيين هذا الذي أوله :

(16) مألكاً : رسالة .

تأوَّبني ليلٌ بيثرب أعْسَرُ
وهمٌّ إذا ما نوَّم القوم مُسْهِرِ

2 – ثم ان شعره اختلط بشعر ابنه عبد الرحمن وبشعر كعب بن مالك ، لأن حسان وكعباً كانا يسيران في اتجاه واحد .

وإذا رجعنا الى سيرة ابن هشام ألفينا كثيراً من الشعر يرويه لحسان ثم يعلق عليه بقوله : « أنشدني أبو زيد الانصاري هذه الأبيات لكعب ابن مالك ، ومثل هذه الملاحظة نجد ابن هشام يشير إليها حتى بالنسبة لابنه عبد الرحمن ، فهو يروي القصيدة ثم يقول انها تروى لابنه .

3 – كذلك نستطيع أن نعزو ضعف شعر حسان الى أنه تعرض في سن متأخرة الى هذا الانقلاب الجذري في حياته الاجتماعية والفنية ، فهو من جهة كان لسان حال قبيلته الخزرجية يسالم من يسالمها ويعادي من يعاديها ، يسالم القرشيين ويعادي الأوس ، فجاء الاسلام فأصبح ملزماً أن يلعب دوراً مخالفاً ، أن يهادن الأوس وقد دخلوا في الاسلام ، ويهاجم القرشيين الذين ظلوا على شركهم .

وهو من جهة أخرى كان قد ألف لوناً من الحياة فيه غير قليل من اللهو والمجون ، يجالس وينادم ويعب من الخمر ما استطاع ، وكان قد عكس هذا اللون من الحياة على خمرياته ، وجاء الاسلام محرماً الخمر ، فأمسك الشاعر عن شربها ووصف مجالسها .

ثم إننا من جهة ثالثة نرى الشاعر نفسه يحس هذا الضعف في فنه فيعلله وقد سئل : « لان شعرك وهرم » فيرد : « إن الاسلام يحجز عن الكذب » (17) .

(17) أسد الغابة لابن الأثير ج 2 ص 4 .

ولا نريد أن نختم هذا الحديث عن حسان دون أن نشير الى بعض أقوال النقاد القدامى في شعره .

فعند ابن سلام وقد ذكره في طبقة شعراء القرى العربية وأهمها المدينة أنه « أشعرهم ... وأنه كثير الشعر وجيده » (18) .

وعند الأصمعي أنه « فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره » (19) .

وقد ورد أن الحطيئة قال : « أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب » . وأن أبا عمرو بن العلاء قال : « أشعر أهل الحضر حسان ابن ثابت » (20) .

وربما كان أبو عبيدة أكثر القدماء تفصيلاً في الحكم حين قال :

« فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ في النبوة وشاعر اليمن كلها في الاسلام » (21) ولعلكم تعرفون أن ابن أبي الخطاب في « جمهرة أشعار العرب » جعل حسان بن ثابت من شعراء المذهبات .

كذلك لا نريد أن نختم هذا الحديث دون أن نقول كلمة عن ديوان الشاعر . فقد وصلنا برواية أبي سعيد السكري عن ابن حبيب وطبع

---

(18) الطبقات ص 179 .

(19) الشعر والشعراء لابن قتيبة ج 1 ص 224 .

(20) تهذيب التهذيب ج 2 ص 247 .

(21) الأغاني ج 4 ص 136 .

عدة طبعات ، في تونس (1864) والهند (في بومباي 1865 ولاهور 1878) ومصر (بتحقيق محمد شكري المكي سنة 1904 وهي طبعة سيئة ، وبشرح محمد العفّاني سنة 1913 مع بعض الإضافات ، وبشرح عبد الرحمن البرقوقي سنة 1929 (وهي طبعة تمتاز بالشكل والشرح الصحيحين) . وقبل ذلك طبع في لندن سنة 1910 في طبعة Harturig Hirschfeld ضمن مجموعة جب التذكارية Gibb : Memoriel series vol XIII وهي قليلة الشروح كثيرة الأخطاء .

ولعلنا نستطيع أن نذهب الى القول بأن الطبعة المصرية بشرح البرقوقي تكاد تكون أفضل هذه الطبعات .

الاسلام والشعر

وضعية قلقة :

الحقيقة أن وضعية الشعر في هذا العصر تبدو قلقة بعض الشيء ، مما جعل الباحثين يحجمون عن دراستها ولا يقربونها إلا بحذر شديد وربما اعتبروها مجرد فترة انتقال فاصلة بين عصرين واضحي المعالم والملامح ، وربما ذهبوا في توضيح ذلك الى أن هذه الفترة لم تعرف شعراء اختصوا بها نشأة ونبوغا وإنتاجا ، والى أن الذين شغلوها بشعرهم كانوا على نوعين :

أ – إما مخضرمون بمعنى أنهم موزعون بين هذه الفترة والعصر الجاهلي ، ولعلهم أميل الى أن يدخلوا فيه فيعتبروا من شعرائه .

ب – وإما موزعون بينها وبين العصر الأموي الذي برزوا فيه وهم بهذا أحق بأن يعتبروا شعراء أمويين .

وقد تنبه ابن سلام الى هذه الظاهرة فأدمج بعض الشعراء المخضرمين مع الجاهليين وأدمج البعض الآخر مع الإسلاميين . وأغلب الظن أن ما يقال من أن الدين الجديد لم يحفز الشعر العربي الى الحركة والنهوض ، وما يقال كذلك من أن الشعراء الذين واكبوا الدعوة الإسلامية لم يكونوا – لقلتهم – يعدون على رؤوس الأصابع ، أغلب الظن أن مثل هذا الكلام لم يكن ليشجع دراسة هذه الفترة لا سيما وأن صحة ما نسب الى هؤلاء الشعراء تعرضت لغير قليل من الشك .

ولا ريب أن فترة مليئة بالحوادث والأحداث كفترة صدر الإسلام لم يكن من الممكن أن يظل الشعر بعيداً عما يجري فيها ، مما يجعلنا لا نشك في أن شعراً كثيراً قد ضاع وأن هذا الشعر الذي وصلنا في حاجة الى كثير من الغربلة حتى نعرف ما صُنِع منه وما نسب لغير أصحابه .

وإذا أردنا أن نعرف تعليل القدماء لضياع هذا الشعر ألفيناهم يذكرون الأحداث الكبيرة والكثيرة التي تعرض لها الإسلام . فابن سلام يقول : « فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، وألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير »(1) . ثم إنه لا ينبغي أن ننسى تأخر حركة التدوين التي لم تبدأ إلا في نهاية القرن الأول ، وكان العرب قبل ذلك مشغولين بالحروب ، ثم إنهم باستثناء بعض إمارات الشمال لم يكونوا يلجأون الى الكتابة وسيلة لحفظ الشعر . ولعلنا نستطيع أن نضيف الى هذا السبب سبباً آخر هو تجنب المسلمين واهمالهم للشعر الذي قيل ضدهم وضد الرسول والدين ، وسنرى كيف أن الرسول عليه السلام كان ينهى عن رواية بعض الأشعار .

لذلك كنا لتحقيق هذا الشعر في حاجة الى دراسات تحليلية ومقارنات دقيقة في كثير من التأني والاستقصاء حتى نستطيع استخلاص مقاييس من شأنها أن تساعدنا على تمييز الموضوع من هذا الشعر تكون أدق من المقاييس التي أوردها أحمد الشايب في كتابه عن تاريخ الشعر السياسي وهي : « انطاق قريش بمدح الرسول أثناء هجاء الأنصار ... ضعف العاطفة ورذالة الأسلوب الى درجة الشعر القصصي الشعبي أحياناً ...

(1) طبقات فحول الشعراء ص 22 (الذخائر) .

كثرة القصائد للشاعر الواحد في الموضوع الواحد ، ثم هناك قصائد يقال انها أنشئت في حادثة خاصة فإذا بها كلام عام لا يتصل بحادثة أو يتصل بها بأوهى الأسباب »(2) .

ضعف الشعر في الاسلام :

إذا رجعنا الى أقوال النقاد في تعليل ضعف الشعر في هذه الفترة الأولى لصدر الإسلام ألفيناها تتلخص فيما يلي :

أ – ان الشعر بدأ يضعف في الفترة التي سبقت الاسلام مباشرة حيث انها لم تعرف فحولاً مجوّدين كامرىء القيس والنابغة ، وعند الدكتور نجيب البهبيتي « أن تشبيه مشركي قريش النبي بالشاعر ورفع القرآن نفسه عن هذا المعنى جعل الناس ينظرون الى الشعر على أنه تقليد جاهلي ، فأصابه من ذلك ما أصاب جميع التقاليد الجاهلية التي حاربها الإسلام ، وكأنما كان الناس ينظرون إليه نظرتهم الى أثر وثني لعصر وثني ذهب بكل أثقاله وبذكرياته الدامية »(3) .

ب – الانشغال بأمر الدين الجديد ، فابن سلام يقول « فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولَهَت عن الشعر وروايته »(4) ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأُخرسوا عن ذلك

(2) ص 87 - 88 (ط الثانية)

(3) تاريخ الشعر العربي حتى أواخر القرن الثالث الهجري ص 113 (ط الرابعة) .

(4) ص 22 .

وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ، ثم استقر ذلك وأُونِس الرشد من الملة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه فرجعوا حينئذ الى ديدنهم منه »(5) .

ج – من بين الأسباب التي يعزو إليها بعض الباحثين ضعف الشعر في هذه الفترة وعدم ظهور تغييرات كبيرة فيه ، أن الشعر كان قد وصل في صورة مكتملة متقنة سواء من ناحية الشكل أو المضمون مما يجعل تطويره أو إضافة شيء جديد إليه ، حتى بالنسبة للعصور التي جاءت بعدُ ، أمراً لا يخلو من صعوبة وربما من تكلف . يقول ابن رشيق القيرواني : « إنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناءً فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكُلفة ظاهرة على هذا وإن حسُن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن »(6) بل إنا نرى الدكتور البهبيتي يرى أن الشعر « كان قد أخذ في السابق للإسلام مباشرة يتجه الى نحو من التفكير جارٍ حول العقائد والدين . والشعر إنما يذهب هذا المذهب في طور شيخوخته ، فأرخصه ذلك وحطه عن مستواه القديم من ناحية وأوقفه موقف المخالفة في الاسلام من ناحية أخرى »(7) .

د – غض القرآن من الشعر .

حقاً ان القرآن تعرض للشعر وهاجم الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا

(5) ص 509 (بولاق) .

(6) ج 1 ص 57 .

(7) تاريخ الشعر العربي ص 114 .

يفعلون »(8) ، وحقاً إن القرآن نزه الرسول عن قول الشعر « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »(9) ، « وما هو بقول شاعر »(10) وهو بذلك يرد زعم المشركين بأن القرآن شعر أو من الشعر وبأن الرسول شاعر « بل هو شاعر »(11) ، « ويقولون اننا لتاركو إلهنا لشاعر مجنون »(12) ، « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون »(13) .

والسر في هذا التنزيه أن الله وصف الشعراء كما رأينا بأنهم غاوون كاذبون ، ولكن المقصود بالشعراء في هذه الآية الشعراء المشركون الذين كانوا يقفون في وجه الدعوة يهاجمون الرسول وأصحابه ، أما الذين آمنوا ووقفوا في واجهة الدفاع عن الاسلام فإن القرآن يستثنيهم بقوله في نفس السورة « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »(14) .

ثم إنه لا ينبغي أن ننسى ما كان يعتقده الناس من « أن للشاعر الجاهلي شيطاناً أو رئياً من الجن يُلهمه وأحياناً كان يدفعه بفظاظة الى الإنشاد ، فلما جاء الاسلام اقتضى الوضع الجديد أن يميز الناس بين الوحي الذي يختص به النبي والإلهام الذي يتصل بالشعر . وهذا

(8) سورة الشعراء 224 ـ 225 .

(9) سورة يس 69 .

(10) سورة الحاقة 41 .

(11) سورة الأنبياء 5 .

(12) سورة الصافات 36 .

(13) سورة الطور 30 .

(14) آخر آيات الشعراء .

حال دون رفع الشعراء الى مستوى الإلهام الصادر عن قوة لا إنسانية مثلما كان أفلاطون عند الاغريق يرى في الشاعر ترجماناً عن الوحي الإلهي وان له استقلاله الذاتي عن ذلك الوحي »(15) .

ثم إن القرآن من جهة كان من الروعة البيانية والسحر الأدبي ما جعل قيمة الشعر تنزل الى حد كبير فقد « شهدت الجماعة الاسلامية هذا التيار من الترغيب في القرآن والاكتفاء به لا من حيث أنه كتاب الدعوة فحسب ، بل من حيث أنه في روعته البيانية فوق ما ورث العرب من تليد الشعر وان سحره الأدبي ليجاوز طاقة البشر وليخلّف وراءه كل هؤلاء الشعراء المجودين . ولهذا وجدنا أن طائفة كبيرة من الصحابة أخذت تعنى بالقرآن عنايتها من قبل بالشعر ، تحفظه وتتدارسه وتكتبه وتتناقل صحفه وتحرص على أن تستمع إليه ، بل وجدنا أن علياً يقدّم عليه أبو الفرزدق ليُسمعه من شعره فيشير عليه بأن يحفّظه القرآن »(16) .

د – عدم اصطناع الرسول للشعراء وتقريبهم إليه . والحق أن الرسول كانت له مواقف مختلفة تجاه الشعر :

1 – مواقف ذم . فقد روي أنه قال : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَهُ (أي يتقيأه) خير له من أن يمتلىء شعراً »(17) . وروي عنه أنه قال كذلك : « لما نشأت بُغِّضت إليَّ أوثان قريش وبغض إليَّ

(15) دراسات في الأدب العربي لغوستاف فون غرنباوم ترجمة جماعة ص 44 .

(16) المجتمعات الاسلامية للدكتور شكري فيصل ص 336 (دار العلم ـ بيروت) .

(17) العمدة ج 1 ص 31 ـ 32 (ط الثالثة ـ مصر) .

الشعر »(18) . ولا شك أنه يقصد هنا شعر الكذب واللهو والمجون والمفاخرة العصبية .

2 – مواقف تشجيع وتوجيه واستخدام الشعر سلاحاً للدعوة يواجه بها مشركي قريش ، فقد ورد في الخبر أن الرسول كان يقول لحسّان : « اهجُهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غَلَس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس » .

3 – موقف إعجاب حيث يروى أنه قال : « ان من الشعر لحكمة » ويحكى في ذلك ان أحد المسلمين جُرح في إحدى الغزوات فأخذ الدم يسيل منه بغزارة فأشار حسان بتضميد جراحه بالكافور فانقطع الدم ، وحين سأل الرسول حساناً عن مصدر هذا الدواء رد عليه « من قول الشاعر العربي :

فكرتُ ليلة وصلها في هجرها
فجرتْ مدامع مقلتي كالعندم
فطفقت أمسح ناظري في جيدها
من عادة الكافور إمساك الدم

فعقب الرسول : إن من الشعر لحكمة » .

4 – مواقف نقدية .

تتمثل في قوله للنابغة الجعدي وكان قد أنشده :

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى
ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا

(18) الطبري ج 1 ص 570 .

يبلغها السماء مجدنا وجدودنا
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

« الى أين يا أبا ليلى » ؟ فيجيبه النابغة : « الى الجنة يا رسول الله » فيرد عليه السلام : « الى الجنة إن شاء الله » .

وفي سيرة ابن هشام(19) أن الرسول سمع كعب بن مالك ينشد قصيدته التي مطلعها :

ألا هَلْ أتَى غَسَّانَ عنَّا ودونَهم
من الأرض خَرْقٌ سيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ(20)

فلما وصل الى قوله :

مُجالَدُنا عن جِذْمنا كلُّ فَخْمةٍ
مُذَرَّبةٍ فيها العَوانِسُ تَلْمَعُ(21)

« فقال له رسول الله ﷺ : أيصلح أن نقول :
مجالَدُنا عن ديننا ... ؟

فقال كعب : نعم . فقال رسول الله ﷺ : فهو أحسن »(22) .

(19) ج 2 ص 132 ، 133 ، 136 .

(20) الخرق : الفلاة الواسعة التي تنخرق فيها الريح . متنعنع : مضطرب .

(21) مجالدنا : من جلد بالسيف إذا تضارب . الجذم : الأصل . الفخمة : الكتيبة العظيمة . مذربة : بالذال المعجمة معناها المحددة . العوانس : رؤوس بيض السلاح .

(22) ص 136 .

5 ـ مواقف تأثرية .

في سيرة ابن هشام(23) أن الرسول حين سمع قُتَيْلة بنت الحارث تبكي أخاها النضر بن الحارث وقد قُتل في بدر بشعر تقول فيه :

هل يَسْمعَنِّي النضْرُ إن ناديتُه
أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمدٌ يا خيرَ ضِنْءٍ كريمةٍ
في قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق(24)
ما كان ضرَّك لو مَنَنْتَ وربما
مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ
أو كنتَ قابلَ فِدْيةٍ فلنأتِيَنْ
بأعز مَا يغلو لديك وينفق
فالنَّضْرُ أقْرَبُ من أَسَرْتَ قَرابةً
وأحقُّهم ان كان عِتْقٌ يُعْتَق

فيتأثر الرسول ويقول : « لو بلغني هذا قبل قتله لمَنَنْتُ عليه » .

تأثير الاسلام في الشعر :

عند بروكلمان أن الاسلام « لم يؤثر تأثيراً عميقاً في شعراء العرب كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك ، فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة مسالك أسلافهم الجاهليين ، ولم تسدْ روح الاسلام حقاً إلا

(23) ج 2 ص 42 ـ 43 .

(24) الضنء : الأصل . المعرق : الكريم .

بعد ظهور العباسيين . وهذه الروح الاسلامية لم يقتصر اتجاهها حينئذ على محاربة تهاون العرب الديني فحسب بل قاومت كذلك طبيعته العصبية القومية نفسها ، فإن العباسيين قد استعانوا على العرب بالموالي وخصوصاً بمن أسلم من أهل خراسان واعتمدت دولتهم على العجم وإن استقامت نخوة العرب في العراق »(25) .

وقد عارض الدكتور شوقي ضيف هذا الرأي حيث حاول في كتابه « التطور والتجديد في الشعر الأموي » إبراز تأثير الاسلام في هذا الشعر .

وإذا كان مثل هذا الكلام يقال عن الشعر الأموي فما لا شك فيه أنه ينطبق على الشعر في أول الاسلام ، ولكننا لا نبالغ في إنكار تأثير الاسلام في الشعر كما لا نبالغ في إثبات هذا التأثير . والحق أننا نستطيع أن نشير الى بعض الجوانب التي ظهر فيها الدين الجديد مؤثراً في الشعر :

أ — أصبح الشعر يخدم الدعوة الجديدة بعد ما كان يخدم القبيلة ، فقد أصبح له دور دفاعي حيث غدا من أسلحة الاسلام القوية التي واجه بها خصومه وأعداءه ، وخاصة قريشاً وحلفاءها من يهود وأعراب ، وكانوا قد جندوا الشعراء لمواجهة الدين الجديد .

ففي العقد الفريد أن الرسول قال : « من يحمي أعراض المسلمين » (26) ؟

(25) ج 1 ص 36 .

(26) ج 5 ص 294 .

وفي الأغاني أنه قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى » (27) . ونحن نعلم أن الرسول نبه حساناً وحذره أن يناقض نفسه وهو يهجو قريشاً فيمس الرسول ، ولكن حساناً أجابه : « والذي بعثك بالحق نبياً لأسلنك منهم كما تسلُّ الشعرة من العجين »(28) . ومع ذلك فإن هذا الشعر في جوهره لم يتغير كثيراً ، فقد بقي يدور حول نفس الأغراض التي كان يدور فيها من مدح وهجاء وفخر وحماسة معتمداً في كثير من هذه الأغراض على أيام العرب ومثالبها وأنسابها .

وليس معنى هذا أن الاسلام لم يلق بظلال على الشعر بل انه كان يلقيها عليه ولو خافتة ، ولعله يكفي أن نلاحظ مدح الرسول وأصحابه وهجو أعدائه وخصومه والإشادة بالفتوح وما كان يتعلق بها من وصف الحروب ورثاء الشهداء ، وأن نلاحظ كذلك ما كان ينشد في المعسكر المقابل للرسول — لنعرف الى أي مدى هزت الدعوة الجديدة عواطف الشعراء وإن كنت لا أشك في أنه هز رفيق عفيف .

ولعلنا ونحن نقرأ هذا الشعر سواء منه الموالي للإسلام والمعادي له لا نلبث أن نلاحظ تطوراً في بعض ألفاظه ومعانيه . فألفاظ مثل الجنة والنار والثواب والعقاب والصلاة والزكاة والوضوء والركوع ومعاني الاستشهاد ونعيم الآخرة وعذاب النار ، كل هذه عناصر جديدة لم يكن يعرفها شعراء الجاهلية .

ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نذهب الى أن الاسلام أثر تأثيراً

(27) ج 4 ص 140 .

(28) العقد الفريد ج 5 ص 277 .

بعيداً وعميقاً في الشعر خلال هذه الفترة الأولى من حياته ، فالصورة القديمة ظلت قائمة ولم تدخلها غير بعض التعديلات الجانبية التي لم تكن لتمس جوهر هذه الصورة فتصبغها بأصباغ جديدة .

ب – ظهور شعراء أنشأتهم الحروب التي قامت بين المسلمين والمشركين وخاصة في مكة . ولعلنا نعرف أن مكة في العصر الجاهلي لم يكن لها شأن في الشعر ولكنا بعد الدعوة الاسلامية وما صاحبها من حروب بدأنا نلمح شعراء قرشيين في مكة ولا سيما أولئك الذين وقفوا يعادون الرسول ويخاصمون دعوته كأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام بن المغيرة وأمية بن أبي الصلت . ويبدو من النصوص التي وصلتنا لهؤلاء الشعراء أنها لا ترقى الى مستوى الشعر الجاهلي وإن كانت تغمرها نفس الروح الوثنية التي كانت تطبع ذلك الشعر . وسنرى حين نتحدث عن طوائف الشعراء نماذج لهذا الشعر .

ج – ظهور شواعر يحمّسن الرجال في الحرب ويبكين على من قتل منهم سواء في معسكر الرسول أو في معسكر الأعداء . فمن شواعر المسلمين صفية بنت عبد المطلب ونُعَم امرأة شَمَّاس بن عثمان .

فمن شعر صفية قولها من قطعة (29) تبكي أخاها حمزة وكان قد قُتل في أُحد .

أسائلةٌ أصحابَ أُحْدٍ مخافةً
بناتُ أبي من أعْجَمٍ وخبيرِ
فقال الخبير إن حمزةَ قَدْ ثوى
وزيرُ رسول الله خيرُ وزيرِ

(29) سيرة ابن هشام ج 2 ص 167 .

دعاه الإلاهُ الحقُّ ذو العرش دعوةً
الى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نُرَجّي ونرتَجي
لحمزة يوم الحشد خيرَ مصير

ومن شعر نُعم في شماس وكان قد قُتل في أُحد :

يا عينُ جودي بفيضٍ غيرِ إبْساسِ
على كريمٍ من الفتيان أباس (30)
صعب البديهةِ ميمونٍ نقيبتُه (31)
حمّالِ ألويةٍ ركّاب أفراس
أقولُ لما أتى النّاعي له جَزَعاً
أودَى الجوادُ وأودَى المُطعم الكاسي
وقلتُ لما خلَتْ منه مجالسه
لا يُبعدُ الله عنّا قُربَ شمّاس (32)

ومن شواعر الجانب القرشي هند بنت عُتْبة وقُتيلة بنت الحارث .

ومن شعر هند وقد انصرف المشركون عن أُحد (33) :

(30) الإبساس : ان تمسح ضرع الناقة لتدر ، وقد استعير للدمع الفائض بغير تكلف .
الأباس : الشديد الذي لا يغلبه غيره .
(31) ميمون النقيبة : مسعود الفعال .
(32) السيرة ج 2 ص 168 .
(33) المصدر السابق .

رجعتُ وفي نفسي بلابلُ جَمَّةٌ (34)

وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي

مِنَ اصحاب بدرٍ من قُريشٍ وغيرهم

بني هاشم منهم ومن أهـــل يثرب

ولكنني قـــد نِلتُ شيئاً ولم يكن

كما كنتُ أرجـو في مسيري ومركبي

ونحن نعرف أن هند بنت عتبة هذه كانت قد وقفت مع النسوة في أُحدٍ يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله يَجْدَعْنَ الأنوف والآذان حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَماً (أي خلاخل) وملائد وأعطت هند خدَمها وقلائدها وقِرطتها وحشياً غلام جبير بن مُطْعم وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تُسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها قائلة :

نحن جزيناكم بيـوم بـــدر

والحرب بعد الحرب ذاتُ سُعُرِ (35)

ما كان عن عُتْبَةَ لي من صبر

ولا أخي وعمّـــه وبكري

شَفَيْتُ نفسي وقضيتُ نَـذري

شفيتَ وحْشِيُّ غليـــلَ صدري

فشكر وحشي عـــليَّ عمري

حتى تَرِمَّ اعظُمي في قـــبري (36)

---

(34) بلابل : أحزان .

(35) السعر : العذاب .

(36) أيام العرب في الاسلام ص 36 . ترم : تبلى .

ذا بدء ظهور لون جديد من الشعر هو شعر الفتوح الذي يصور الحروب التي خاضها المسلمون في سبيل نشر الدين الجديد داخل الجزيرة وخارجها ، وسنفرده في بحث خاص .

على أنه لا يخفى أن الناس في مثل هذه الانقلابات مهما كانت ناجحة يظلون محتفظين في نفوسهم بشيء من رواسب العهد القديم ولا يتأثرون بما تحمله هذه الانقلابات من مبادىء جديدة إلا بعد مرور زمن قد يطول عند البعض وقـــد يقصر عند آخرين . وربما كان الأدباء أكثر الناس حاجة الى وقت طويل حتى يتأثروا وإلى وقت أطول ليعبروا عما تأثروا به .

ولعلنا هنا أن نشير الى حقيقة تتعلق بالإبداع الفني نقصد منها الى إثبات أن الأديب لا يستطيع أن ينتج في حال التوتر والانفعال وإن فعل يكون انتاجه غير ذي قيمة وإن تأثر فتأثيره وقتي ليس غير . والسبب أنه لا يستطيع الإنتاج الجيد إلا بعد أن تهدأ ثورته وتختمر تجربته ويكتمل شعوره ويتعقل وجدانه ، وإلا بعد أن يخلو الى نفسه ليعيد في مخيلته عن وعي أو عن لا وعي ذلك التوتر ، فيتأمله ويتدبره ، ولن يتسنى له الإبداع الفني ما لم يمر بهذه الفترة التي تسبق التأليف والتي يسميها البعض فترة الوحي والإلهام ، وهي فترة يهـــدأ فيها قد تقصر مدتها وقد تطول الى أن تحين فرصة تبزغ فيها الفكرة التي كانت مختمرة في ذهنه عملاً أدبياً رائعاً .

وإذا حاولنا أن نطبق مثل هذه النظرية على شعراء صدر الإسلام ألفينا أن شعراءه لم يتح لهم – وخـــاصة في السنوات الأولى وتعتبر سنوات انتقالية – أن يتأثروا تأثراً نفسياً وعقليـــاً يكون من العمق

بحيث يغير وضعية الشعر شكلا ومضموناً وبحيث يجعل الشعراء يعبرون في جودة وإبداع عن تفاعلهم مع الدين وانفعالهم به .

طوائف الشعراء :

إذا حاولنا أن نقسم شعراء هذا العصر الاسلامي الأول الى طبقات، ألفينا إمكان جعلهم ثلاث طبقات :

1 – شعراء قريش :

وهم الشعراء الذين وقفوا من الاسلام موقف الخصومة والعداء يرثون قتلى المشركين ويهجون الرسول وأصحابه ، وأشهرهم الحارث بن هشام بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب وعبدالله بن الزبعرى وأمية بن أبي الصلت وأبو أسامة معاوية بن زهير . وقد تكفلت سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد والمغازي للواقدي وغيرها برواية أشعارهم .

ومن أمثلتها قصيدة أبي أسامة في هزيمة المشركين يوم بدر – وقد وصفها ابن هشام بأنها أصح شعر قيل في بدر(37) ، يقول فيها :

ولما أن رأيت القوم خفُّوا
وقد زالت نَعامتهم لِنَفْرِ (38)
وان تُركت سراةُ القوم صرعى
كأن خيارهم أذْباح عِتْرِ (39)

(37) ج 2 ص 34 - 35 .

(38) زالت النعامة : يضرب مثلا للفرار والهلاك ، والنعامة في اللغة باطن الرجل ، ومن مات فقد ارتفقت رجله وظهرت نعامته . النفر : الجزع والتفرق .

(39) العتر : صنم يذبح له .

وكانتْ جُمَّةٌ وافتْ حِماماً
ولُقّينا المنايا يوم بدر
فصدّ عن الطريق وأدركونا
كأن سراعَهم تيّارُ بحر

ومن أمثلتها كذلك قصيدة أمية بن أبي الصلت في رثاء من أصيب من قريش في بدر ، يقول في أولها :

ألاَ بكيْتِ على الكرا
م بني الكرام أُولي المدحْ
كبكا الحمام على فرو
ع الأيْك في الغُصُن الجوانح (40)

وقد ذكر الاصفهاني(41) أن الرسول عليه السلام نهى عن رواية هذه القصيدة .

2 – شعراء الرسول :

وهم شعراء المدينة الذين كانوا يقفون في واجهة الدفاع عن الرسول والاسلام ، يردون على شعراء قريش بنفس السلاح الذي كانوا يرمونهم به . ولم يكن هذا السلاح غير المثالب . وقد ورد في الخبر أن بعض هؤلاء الشعراء استأذن الرسول في الرد على القرشيين فقال لهم عليه السلام : « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم »

(40) الجوانح : الموائل .

(41) ج 4 ص 133 .

وقد ورد في الخبر كذلك أنه قال لحسّان : « إذهب لأبي بكر وخذ عنه ما تريد من معرفة مثالبهم ومواضع الذم فيهم » وأنه كان يقول له : « اهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدُس » .

وفي سيرة ابن هشام(42) فصل عن قدوم وفد بني تميم على الرسول مجملُ ما فيه أن هذا الوفد حين قدم وكان فيه عُطارد بن حاجب والزبرقان ابن بدر ، قال للرسول : « يا محمد جئنا نفاخرك فائذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : أذنت لخطيبكم فليقل » ، فقام عطارد فألقى خطبة تفاخرية ختمها بقوله « أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمرٍ أفضل من أمرنا ... فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس : قم فأجب الرجل في خطبة » . ففعل ثم قام الزبرقان فأنشد قصيدة أولها :

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا
منا الملوك وفينا تُنصب البِيَعُ

وكان حسان غائباً فبعث إليه الرسول ﷺ قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم فخرجت الى رسول الله وأنا أقول :

منعنا رسول الله إذ جاء بالهدى
على أنف راضٍ من معَدٍّ وراغم(43)

(42) ج 2 ص 560 .

(43) في رواية : منعنا رسول الله إذ حل وسطنا .

منعناه لما حلّ بين بيوتنا
بأسيافنا من كل باغ وظالم

الخ ... الأبيات .

فلما انتهى حسان الى الرسول وكان الزبرقان قد ختم قصيدته قام فقال قصيدته التي أولها :

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم
قد بينوا سنة لله تُتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإلاهِ وكلّ الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

ولن نطيل بذكر بقية أبيات القصيدة ونكتفي بالإشارة الى أن التميميين بعد سماعهم لشاعر الرسول قالوا : « ان هذا الرجل لمؤتىً له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولأصواتهم أحلى من أصواتنا » ولم ينصرفوا إلا وقد دخلوا في دين الاسلام .

وفي الأغاني لدى ترجمة حسان أنه « كان يهجوهم ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم هم : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب وكان عبدالله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم الى الكفر ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر ، فكانوا في ذلك الزمان أشدُّ شيء عليهم

قول حسان وكعب وأهونُ شيء عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة » .

وسنرى حين نتحدث عن هؤلاء الشعراء وسنخص حساناً بالحديث — أنهم لم يحيدوا كثيراً عن الأنماط الجاهلية وأنهم لم يتعمقوا معاني الاسلام ومبادئه ، أو على الأقل لم تظهر آثار هذا التعمق في قصائدهم الاسلامية . ولعلنا نستطيع أن نعتبر من هذه الطائفة الشاعر الأعشى ميمون بن قيس (530 - 629 م) على الرغم من أنه لم يسلم . ففي سيرة ابن هشام(44) أنه أتى النبي يريد الاسلام فقال قصيدته التي مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبتّ كما بات السليم مسهّدا (45)

وفيها يقول بنفَس أقرب ما يكون الى الاسلام :

وآليت لا آوي لها من كلالة
ولا من وجىً حتى تلاقي محمدا (46)
نبياً يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمري في البلاد وأرعدا
له صدقات ما تُغب ونائل
وليس عطاء اليوم مانعه غدا

(44) ج 1 ص 386 .

(45) في رواية : وعادك ما عاد السليم المسهدا (انظر شعراء النصرانية قبل الاسلام ص 364) .

(46) لا آوي : لا أشفق ولا أرحم . كلالة : تعب ، والضمير يعود على الناقة . الوجى : وجع الخف من كثرة السير .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى
ولاقيت بعد الموت من قد تزوّدا
ندمت على ألا تكون كمثله
فتُرصد للأمر الذي كان أرصدا(47)

إلى أن يقول في نفس الروح :

فإياك والميتات لا تأكلنّها
ولا تأخذنْ سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصُب المنصوب لا تنسكنّه
ولا تعبد الأوثان ، والله فاعبدا
وصلِّ على حين العشيات والضحى
ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا السائل المحروم لا تتركنه
لعاقبة ولا الأسير المقيّدا
ولا تسخرَنْ من بائس ذي ضراوة
ولا تحسبن المرء يوماً مخلّدا

وللأعشى شعر غير هذا يبدو فيه أثر الاسلام وإن أنكر بعض الدارسين نسبته له ، على اعتبار أنه كان وثنياً ، وليس نصرانياً كما ذهب الأب شيخو الذي يرى أنه أخذ « مذهبه من قبل العبادين ، نصارى الحيرة كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك »(48) .

(47) ترصد : تعد .

(48) شعراء النصرانية قبل الاسلام ص 358 (ط ثانية) .

وتذكر السيرة أن بعض المشركين من قريش علم بذهاب الأعشى الى الرسول للإسلام فاعترضه وأخبره أنه يحرّم الزنا فأجاب الأعشى : « ما لي فيه من أرب » ثم أخبره أنه يحرم الخمر فقال : « أما هذه فوالله ان في النفس منها لعُلالات ولكني منصرف فأتروى منها عامي هذا ثم آتيه فأسلم » فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد الى الرسول .

3 – شعراء البادية :

وهم أولئك الذين لم تظهر في شعرهم ملامح الدين الجديد على الرغم من إسلامهم ، ولعلها إن ظهرت فهي أضعف من أن تدل على تأثرهم به . ونستطيع أن نذكر منهم متمم بن نويرة اليربوعي وأبا محجن الثقفي والحطيئة . ونستطيع أن نضيف إليهم كعب بن زهير وإن كان أغلب الدارسين يعدونه في طبقة شعراء النبي . وسنرى حين ندرس قصيدته « البردة » أنه لولا أبيات معدودة فيها لما أمكننا أن نعرف أنها في مدح الرسول .

وربما جاز لنا أن نعتبر لبيداً(49) من شعراء البادية ، فعند ابن قتيبة أنه « لم يقل في الاسلام إلا بيتاً واحداً ، واختُلف في البيت ، قال أبو اليقظان : هو

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي
حتى كساني من الاسلام سربالا

وقال غيره : بل هو قوله :

(49) 560 ، 561 وأسلم سنة 629 .

ما عاتب المرءَ الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح »(50)

وعنده كذلك أن عمر بن الخطاب طلب منه أن ينشده شيئاً من شعره فأجابه :

« ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران »(51) .

(50) الشعر والشعراء ج 1 ص 195 (ط. دار الثقافة ـ بيروت) .
(51) المصدر السابق .